هوامش

عمر منزل «بيت العشّي» في مدينة غزّة القديمة هو أكثر من نصف قرن. يروي البيت بين جدرانه العتيقة قصص حقبٍ زمنية مرّت على أقدم المدن في العالم

يغلب على بيت العشي طابع البناء القديم (عبد الحكيم ابو رياش)

«بيت العشي»

أثر يختزل ملامح التاريخ والتراث الفلسطيني

غزة ـ **علاء الحلو**

يتربع بيت العشي الأثري، منذ حوالي نصف قرن، في قلب مدينة «غزة القديمة»، ليروي على مدار عشرات العقود التي مضت، من خلال أقواسه الضخمة، وجدرانه العتيقة، تفاصيل حقب زمنية مَرت بها المدينة التي تعتبر واحدة من أقدم المدن في العالم.

ويُجسد البيت الأثري عبر قبابه، وأقواسه، وزخارفه التي بُنيت قبل مئات السنين، والتي تعكس أصالة البناء والمعمار الهندسي القديم، تفاصيل التراث الفلسطيني، والذي فاح عبقه في أرجاء المكان، صاحب النصيب الأكبر من الجمال والعراقة.

وتضم البلدة القديمة، والتي تعتبر جزءًا رئيسيًا، من مدينة غزة، العديد من الأعيان الأثرية القديمة، وفي مقدمتها المسجد العمري الكبير، وكنيسة القديس بيرفيريوس، والعديد من الكنائس والأديرة، والمدارس والمعاهد العتيقة، كذلك تضم حمام السمرة الأثري، وعددا من الأسبِطة، ومدرسة الزهراء ومتحف قصر الباشا، فيما يضم العديد من الأحياء القديمة، وفي مقدمتها حي الزيتون، وحي الشجاعية وحي الصبرة وحي الدرج، فيما تعود غالبية المباني فيها إلى العصرين، العثماني والمملوكي. ويعود بناء منزل العشي، والذي تبلغ مساحته نحو 220 مترًا، إلى العهد المملوكي وفق حديث جار المنزل، شريف بركات ويقطن منطقة غزة القديمة، حيث تملكته عائلة «سيسالم»، في الفترة التي سبقت انتقاله إلى ملكية عائلة «العشي». ويغلب على بيت العشي طابع البناء القديم، بما يميزه من جدران سميكة، وقباب تعتلي المداخل والطرقات، ونقش يزين بعض الزوايا، وعن ذلك يوضح بركات في حديث مع «العربي الجديد» أن طابع البناء المملوكي بدا واضحًا في البناء والعمران، بما يميزه من نقوش وتيجان وزخارف على الأبواب وفوق الأبواب والنوافذ. وتتميز منطقة غزة القديمة وفق قول الفلسطيني بركات، بوجود العديد من البيوت القديمة والأعيان الأثرية التي تكسِبها مزيدًا من القيمة التراثية، ويوضح أن الفترة الأخيرة شهدت توجهًا ملحوظًا نحو ترميم تلك الآثار، وعلى وجه التحديد البيوت الأثرية، بما تحمله من قيمة كبيرة، مؤكدًا على ضرورة «مواصلة ترميم تلك الأعيان والعناية بها، على اعتبار أنها الواجهة الحضارية والتاريخية للبلدة».

ويُستَهَل بيت العشي، في الناحية اليمنى من البناء، بدرج يوصل إلى الطابق العلوي، فيما يزين أسفله، قوس يسمى «مزيرة»، كان يُستخدم من قِبل السُكان كخزان صغير للمياه، وتعلو الزخارف الهندسية المنقوشة يدويًا، بابا محاطا بحجارة صخرية قديمة، تعلوها زخارف هندسية محفورة يدويًا بدقة، يدخلك إلى غرفتين مفتوحتين تعلوهما قباب وأقواس كبيرة من الاتجاهات كافة، ويحاط بالبيت أسوار كبيرة ترتفع عن الأرض ثلاثة أمتار تقريبًا، يتوسطها مدخل رئيسي للبيت، يوصِل إلى «الفناء» أو الساحة المفتوحة، والتي تعتبر أساس البيوت القديمة، وتقام فيها معظم الأدوار المعيشية اليومية.

وتحتوي غرف بيت العشي على تجاويف مقوسة، تشبه الخزانات، لوضع مستلزمات البيت، ويجاورها مصابيح فخارية للإضاءة وإكساب المكان صبغة جمالية إضافية، فيما يتميز السقف بتجويف يشبه القُبة ثلاثية الأضلاع. ويدخُل الزائر إلى البيت، عن طريق شارع ضيق أو ممر، مغطى بالسباط «وهو سقف مقوس كان يستخدم للحماية والزينة والإنارة»، وتطل الناحية الغربية على الفناء، فيما تتميز أعمدتها المزينة بالرُخام، بالأقواس، التي تميز البناء القديم، كذلك تطل باقي الغرف على إيوان البيت (وهو الساحة أو الفِناء)، ويستخدم لاستضافة الزوار والضيوف، فيما كان يزين بالمقاعد والفرش التقليدي، ويضم فناء البيت ثلاث غرف، ومرفقاتها، من حمام ومطبخ وأماكن للجلوس.

وتجذب الحجارة الرخامية، ذات الألوان الوردية والسُكرية، والتي تزين العقود والناحية العلوية والجانبية من النوافذ والأبواب والأقواس، ومصدرها من التلال الصخرية، أنظار زوار البيت، الذي بات مؤخرًا يضج بالعديد من الفعاليات المجتمعية، والإعلامية، في محاولة لإعادة إحياء المكان، والحفاظ عليه من الاندثار، تأثرًا بعوامل الزمن، علاوة على حفظ مكانته وقيمته التاريخية والمعنوية.

وتسعى بعض المؤسسات المحلية والدولية، ومنها مركز عمارة التراث «إيوان» ومؤسسة اليونسكو الدولية إلى إنقاذ الأعيان الأثرية من الزحف العمراني، واندثار الملامح الأثرية في المدينة العتيقة، ما دفع الأولى إلى ترميم البيت، والثانية إلى تجهيزه كي يصبح مؤهلًا للزيارة، وتنظيم الأنشطة والفعاليات.

باختصار

يعود بناء منزل العشي، والذي تبلغ مساحته نحو 220 مترًا، إلى العهد المملوكي وفق حديث جار المنزل، شريف بركات

■■■

تسعى بعض المؤسسات المحلية والدولية، ومنها مركز عمارة التراث «إيوان» ومؤسسة اليونسكو الدولية إلى إنقاذ الأعيان الأثرية

■■■

يُجسد البيت الأثري عبر قبابه، وأقواسه، وزخارفه التي بُنيت قبل مئات السنين، والتي تعكس أصالة البناء والمعمار

وأخيراً

أغاني مديح الملوك والرؤساء

خطيب بدلة

تنتمي أغنية «رَبْع الكَفَافي الحمر» التي يؤدّيها عبده موسى إلى ما يُصطلح على تسميتها «أغاني التعبئة»، فهي مخصّصة للتغني بأمجاد الأردنيين النشامى، والجيش الأردني. وتمتدح، في الوقت نفسه، ملكَ الأردن الراحل الحسين. ومن الطريف أن عمر عبد اللات أجرى تحويراً بسيطاً على كلماتها، لتناسب الملك عبد الله الثاني؛ فبدلاً من مخاطبة الحسين، صارت تخاطب «أبو الحسين». (وإذا لم تخني ذاكرتي، غنّت سميرة توفيق نسخة عبده موسى في إحدى حفلاتها، وتبدأ بجملة «يا مرحبا ويا هلا منين الركب من وين»).

إذا تتبعتَ «أغاني التعبئة»، تجد أنها ذات أنواع ومستويات متباينة، بلغت ذروة تألقها في الخمسينيات والستينيات، بالتزامن مع الحروب والانتكاسات العربية، وأفضل مَن أبدع فيها من الشعراء عبد الرحمن الأبنودي وأحمد فؤاد نجم وصلاح جاهين. وستلاحظ أنّ مستواها يرتفع كثيراً حينما تقتصر على التغنّي بالوطن، كأغنية الشيخ إمام «مصر يما يا بهية، يامُّ طرحة وجلابية» التي أنتجت سنة 1982، وأغنية عبد الحليم «أحلف بسماها»، وهي رائعة مع أنها ترسو على فكرة طوباوية، هي أن «الشمس العربية» لا تغيب، لكن هذا الأمر منسجم مع تشبّع الراحل عبد الرحمن الأبنودي بالفكر القومي. وتنخفض القيمة الفنية لهذه الأغاني عندما تمتدح الزعماء، كالأغنية التي كتبها إسماعيل الحبروك ولحّنها كمال الطويل وغنّاها عبد الحليم في سنة 1958 «يا جمال يا حبيب الملايين». المعنى الأساسي لهذه الأغنية خطير جداً، فهي تنظر إلى الشعوب (الملايين) أنها كائنات متناهية في الصغر، لا رأي لها، ولا قيمة لها، ولا شيء يجمعها سوى حب جمال عبد الناصر، الحب الغريزي القطيعي الذي لم ينجُ منه الأطفال المساكين، إذ يقول في أحد المقاطع: «صَحّيت الشرق بحالُه، بشعوبه بأطفالُه». أما الزعيم عبد الناصر، فقد انتزعت القيمة المعنوية لكلّ فرد من الملايين، وأهديت إليه، حتى يكبر، بينما هم يتضاءلون باطراد.

هذا كله ونحن لم نصل إلى النموذج الأكثر كارثية، الأغاني التعبوية التي تمتدح الحكام الديكتاتوريين السفاحين، ومثالها أغنية داود عبد الله «وينك صدّام» التي تحولت إلى دبكة شعبية، والأخرى التي كنا نسمعها من الراديو أيام غزو الكويت 1990، بعنوان «صدّام العرب»، وأغنية «راعي الفزعة»... أما الأغاني التي كانت تمجّد حافظ الأسد، فالغريب في أمرها أن معظمها أنتجت في الثمانينيات والتسعينيات، أي بعد ارتكاب حافظ وشقيقه رفعت ما لا يحسب الحاسب من المجازر بحق الشعب السوري، في حلب، وحماة، وحمص، وإدلب، وجسر الشغور، وسجن تدمر، فضلاً عن حملات الاعتقال الواسعة التي أدّت إلى امتلاء السجون والمعتقلات بالسوريين، آجالاً غير مسماة... من تلك الأغاني «تسلم للشعب يا حافظ» لجورج وسوف، و«حَمَاك الله يا أسدُ» لأصالة نصري، و«أبو باسل قائدنا» للبناني علي حليحل، وقد أنتجت عندما بدأ مخطّط توريث باسل الأسد رئاسة سورية في سنة 1993.

> كانت ذروة تألق «أغاني التعبئة» في الخمسينيات والستينيات، بالتزامن مع الحروب والانتكاسات العربية

وهنا تبرز إشكالية خطيرة أخرى، أن بعض الأغاني مشغولة بطريقة جميلة وعامرة بالتطريب، مثل «من قاسيون أطل يا وطني» التي كتبها خليل الخوري ولحّنها سهيل عرفة، يخرُج مستمعها بنتيجة أن «البعث» حزب عظيم، وهو الذي أعطى القيمة لدمشق، ونثر فوقها الشهب. والأخطر أغنية «زادك الله» التي غنّاها مصطفى نصري بصوته العذب، مادحاً السفاح حافظ الأسد... وأين هؤلاء كلهم من سيمفونية «جبهة المجد» المأخوذة عن قصيدة محمد مهدي الجواهري التي أبدعها صفوان بهلوان وغنّتها ميادة الحناوي، ومعها مائة عنصر كورال، وبتكلفة مالية عالية.

أخيراً، بالعودة إلى أغنية «ربع الكفافي الحمر» نجد فيها فكرة خاطئة، وذات دلالة سيئة، وهي: الجور ما يقبله إلا «الردي خاله». وكلّكم تعلمون أنّ الإنسان ممكن أن يكون طيباً ونبيلاً ومحترماً، مع أنّ خاله ردي، والعكس صحيحٌ بالطبع.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**